مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 07 عدد: 01 السنة: 2021 E-ISSN:2588-2325

الهجرة العائدة: أسباب أهداف وتأثيرات، دراسة حالة عينة من العمال الجزائريين

The phenomenon of return migration: reasons, objectives and impacts: case study of a sample of Algerian workers

بودشيشة أحمد*، جامعة 20 اوت 1955 سكيكدة، a.boudchicha@univ-skikda.dz

تاريخ الإرسال: 2021/05/25 تاريخ القبول: 2021/05/28 تاريخ النشر: 2021/06/05

ملخص:

الهجرة العائدة او العكسية، الى الوطن، مصطلحان يعبران عن مسألة تشغل افرادا واسرا من المغتربين العاملين وحتى اللاجئين. انه بشكل عام لم تتوقف الهجرة العائدة من البلدان المهجر الى البلدان الاصلية (منطلق الهجرات)، خاصة بالنسبة للجاليات المغاربية المقيمة في اوروبا، والعربية المقيمة في الخليج العربي واللاتينيين في و. م. الأمريكية، وهي هجرة عكسية ارادية. فمع اشتداد الازمات وظهور الاوبئة والامراض والعنصرية وكراهية الاجانب -كما هو الحال الان- تصبح البلدان المستقطبة للهجرات، منفرة، وطاردة، فيلجأ المقيمون الأجانب فيها، الى التفكير والقيام بالهجرة العائدة (المعاكسة) باتجاه اوطانهم التي هاجروا منها في السابق مضطرين. تسجل دراستنا المنجزة بين 2014-2019، المعتمدة على المنهج النوعي (المقابلة المعمقة، وتتبع مسارات الحياة (life stories). ان العمال الجزائريين العائدين المستجوبين، اختلفت دوافع عودتهم الى الوطن بسبب الغياب المزدوج، وانهم يحْملُونَ ويَحْلُمونَ بمشاريع تنموية وطموحات اجتماعية في موطنهم الاصلي. لم يعد مصطلح المهاجر والمغترب يحمل نفس التمثلات السابقة التي كانت ترتبط بالإعجاب الاجتماعي في موطنه. والهجرة العائدة بالنسبة للشيوخ حتمية وللشباب فشل.

الكلمات المفتاحية: الهجرة العائدة، الهوية، الغياب المزدوج، الاندماج الاجتماعي، التمثلات.

Abstract:

* المؤلف المرسل

Return migration is a problem that occupies migrant individuals or families, expatriates, workers, even refugees. In general, this phenomenon is not stopped, in particular for the Maghreb communities residing in Europe, the Arabs residing in the Gulf countries, and the Latinos in the United States, it is a reverse migration. During, crises, and xenophobia - as is currently the case - host countries, become repulsive, so that foreign residents resort to reverse migration. Our study carried out between 2014-2019, based on the qualitative method (in-depth interview and follow-up of life stories) Reveals, that the worker interviewers differed in their reasons for returning to the country. Because of "double absence", and that they have, and dream of Development projects and social aspirations. And that the immigrant no longer carries the same social representations. For the elderly, the return migration is inevitable, and for the young it is a failure.

Keywords: Return migration, identity, the double absence, social integration, interpretation

مقدمة

انه كثيرا ما يتم اغفال ودراسة الهجرة العكسية (reverse migration)، وخاصة عودة العمال من بلدان ما أصطلح عليه ذات الجذب الى بلدان ما تسمى ذات الطرد. حيث ان هذا النوع من الهجرة له اسبابه الاجتماعية والاقتصادية وتمثلاته الاجتماعية، انها الظاهرة غير مرئية، فهي أقل اهتماما مقارنة بالهجرة الشرعية وغير الشرعية باتجاه دول الجذب في السنوات الاخيرة. فقد عملت بلدان الطرد والحكومات الأوروبية على تشجيع المهاجرين على العودة لأوطانهم مقابل منحهم بعض المزايا التجارية والجمركية وحتى متابعة في أوطانهم بالتنسيق مع هيئات محلية ودولية، مع تدعيم مالي (العودة الموجهة). ففي 2018 سجلت تقارير منظمة الامم المتحدة للهجرة، أن حوالي 10. 000 مهاجر اختاروا العودة الى أوطانهم بطريقة ارادية، بفضل جهاز المساعدة على العودة الارادية والاندماج AVRR، هذا الجهاز مكن 1. 3 مليون من المهاجرين من الاستفادة من المساعدة منذ 1979، وخلال العشر سنوات

الأخيرة إستفاد كما يذكر التقرير 300. 000مهاجر من مساعدة للعودة، وكل عام يستفيد في المتوسط 30. 000 مهاجر من مساعدة. ((L'ONU, 2018

يهتم هذا البحث بظاهرة الهجرة العكسية لعينة من "عمال مهاجرين جزائريين" تقاعدوا من عملهم بفرنسا ويعتبرون من الجيل الأول الذين غادروا الجزائر بعد الاستقلال للعمل في فرنسا. ثم بدأوا في العودة في بداية السبعينات وحتى التسعينيات بعدما خاضوا تجربة العيش في بلد المهجر. البحث أنجز بين 2014-2019، اعتمد على المنهج النوعي (المقابلة المعمقة، وتتبع مسارات الحياة life stories). وبالرغم من صعوبة الموضوع وشح البيانات المتعلقة بالعائدين (عينة البحث) وتبعثرها لأنها تعود الى سنة 2014 (حينما كنا نجري تربصا بمركز البحث بيار نافيل ايفري CPN-فرنسا-)، حيث التقينا بمجموعة من المهاجرين المتقاعدين الذين عادوا منذ مدة، وأخرون يعيشون في المراقد العمالية بفرنسا، وكانت فكرة العودة تجول بخواطرهم نظرا لحالة التشتت العاطفي والحنين لكل ما يعبر عن البلد وأرض الاجداد، خاصة أولئك القادمين من نواحي سطيف وسكيكدة (الجزائر). ثم أكملت رصد مسارات بعض المهاجرين العائدين في الجزائر في 2019 بمقابلتهم في موطنهم. وهو ما كان سببا في هذه الورقة البحثية التي تهدف الى:

-ابراز ظاهرة الهجرة العائدة وأثارها على المهاجر العائد

-دراسة مسارات حياة هؤلاء الشيوخ المتقاعدين ورصد تاريخهم وقصصهم في الهجرة والغربة.

- المساهمة في وضع اقتراحات وبدائل لوضع سياسات محلية وإجراءات تحفيزية واندماجية للعائدين من الشيوخ وكذا شباب الهجرة غير الشرعية خاصة مع اشتداد العنصرية والكراهية والجوائح.

الاشكالية

ان عدم توفر الإستقرار والأمن السياسي والإجتماعي في البلدان المهاجر منها، تعتبر عوامل طرد للمهاجرين وتدفعهم نحو الهجرة الدولية بشتى الطرق. وبعد مدة من الاغتراب يشتد حنينهم الى وطنهم الأصلي وتتجمع عوامل عديدة ومختلفة قد تدفعهم الى العودة. وبالفعل، فان كثير من الأفراد والأسر من بلدان كثيرة عادت أدراجها على أمل العيش في الموطن الأصلي لأسباب ودوافع تختلف من شخص الى أخر ومن أسرة الى أخرى وخاصة من العمال. فليس هناك من مهاجر حديث العهد أو عَمَرَ وهَرَمَ في المهجر لم أو، لا يفكر في العودة من الهجرة بما في ذلك الحراقة واللاجئين، بعدما إكتشف زيف التصور والتمثلات الخاطئة عن عالم ما وراء البحر وكذا الأخر صاحب المَهْجَرْ، والاختلافات الثقافية الدينية بينهما.

ان كثير من الكتابات إهتمت بدارسة الهجرة العائدة في المغرب العربي وافريقيا، كما خص الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة بوكالاتها المختلفة نصيبا من الاهتمام للتشجيع على العودة الارادية

للمهاجرين الى بلدانهم الأصلية في إطار حزم من المساعدات لهؤلاء المهاجرين أو برامج انمائية لبلدانهم. فمن خلال أراء عينة من العمال المتقاعدين الجزائريين حول تجربتهم في الهجرة وتتبع مسارات حياتهم قبل الهجرة واثناء الهجرة وبعد عودتهم وثم تمثلات الناس لهؤلاء العائدين وما تحمله الثقافة المحلية من معاني وعبارات وتأويلات حول العائد من المهجر (المغترب)، يمكن الوقوف على كثير من قصصهم life stories حيث يختلط فيها البؤس والماسي والْحُرقة مع الغبطة والطرفة، فما الذي يدفع المهاجرين العمال المتقاعدين، لاتخاذ قرار بالعودة الى موطنهم الاصلي؟ ومنه: هل التقاعد أو فقدان العمل (العجز) يسقط مبرر البقاء في بلاد المهجر؟ ثم لماذا تزداد ظاهرة الهجرة العائدة لدى الشيوخ وتقل لدى فئة الشباب؟ وماهي طموحات ومشاريع هؤلاء العائدين الى أوطانهم (عينة البحث)؟ و أخيرا ماهي التأويلات الاجتماعية (الانطباعات، الآراء) عن المهاجر العائد اليوم في الجزائر؟.

-الفرضية:

- تتجمع عوامل شخصية وإجتماعية ونفسية تدفع العائد الى تنفيذ مشروع العودة، حيث أن بلوغ سن التقاعد وفقدان السند العائلي والإجتماعي، عوامل رئيسية في ازدياد عدد العائدين الى أوطانهم خاصة من المتقاعدين. وتتفرع هذه الفرضية الى فرضية جزئية،

-ان صورة المهاجر والعائد من الغربة، تغيرت في تمثلات المحيط العائلي والاجتماعي للعائد.

-المفاهيم:

-الهجرة العائدة:

تعرفها المنظمة الدولية للهجرة OIM، بأنها الهجرة التي تعيد شخص الى مكان انطلاقته –أي الى بلده الأصلي أو مكان اقامته العادية- عادة بعد اقامة عام على الأقل في الخارج. قد تكون ارادية أو اجبارية وقد تتضمن العودة الى الوطن بالرضا والموافقة بكل حرية الى حد ما (عودة موجهة) وحسب فرانك بوفنكارك F. Bovenkerk، فان الهجرة العائدة سيرورة في خضمها يعود أشخاص الى بلدانهم أو موطنهم الأصلي بعد مدة معتبرة في بلد أخر، أو في منطقة أخرى ((Michael, 2014، ويعرف عبد المالك. صياد الهجرة، بانها نسق معقد من متغيرات الانطلاق ومتغيرات الوصول وبالتالي لا يمكن القيام بسوسيولوجيا الوفود l'émigration دون الاهتمام في أن واحد بسوسيولوجيا النزوحl'immigration لانهما وجهان لعملة واحدة (شهبار. 2016 :190). اجرائيا، نعرف الهجرة العائدة أو العكسية في هذه الدراسة: بأنها عودة المهاجرين من غربتهم أومن اقامتهم في بلد الاستقبال الى أوطانهم، وهي اما عودة تقاعد أو عودة بسبب فشل مشروع الهجرة أو عودة مجددين أو عودة محافظين. والهجرة العائدة هي نتاج حتمي للهجرة الأولى.

- العائد من المهجر:

العائد من المهجر، مفهوم حَمَالٌ لكثير من الأوجه والمسارات المختلفة، فهناك المهاجر العائد من العمل، وهناك مهاجر سياسي عائد بعد نفي أو هروب من ضغط سياسي، كما يوجد عائدون من الأطفال الصغار أي العودة العابرة للأجيال (Michael,. 2014 :79). وهكذا يمكن أن نعرف إجرائيا مصطلح العائد، بأنه فرد يقرر الإقامة النهائية في موطنه الأصلي أو فرد مقيم في بلد أجنبي يتخذ قرار بالعودة الى البلد الذي هاجر منه سابقا طريقة ارادية او اجبارية أو موافقا.

-الغُرْبَة:

هناك دلالات وفروق سيميائية في اللغة العربية بين لفظ المهاجر والمغترب، في الإنجليزية (expatriate /migrant)، وفي الفرنسية بين immigrant/ migrant، فالمهاجر شخص إرتحل من بلده أو مكانه الى بلد أخر للعمل، وعلى ذلك فالتركيز ينصب على الاهتمام بمنطلق الهجرة أي الهجرة من أين، فيتم البحث في بداية مساره وعوامل الانطلاق. أما المغترب من الغربة فهو شخص مهاجر دائم، يهاجر الى بلد أخر ليعيش فيه ويستقر على الدوام وفيه يتم التركيز على بلد الاستقبال اي البلد الذي هاجر اليه ودراسة وضعيات الاغتراب، والسياقات والتحولات التي تجعل المغترب يعيش تأثيراتها السلبية مما يبقيه بعيد أن يكون مواطنا كامل الحقوق كإبن البلد (وهذا ما حاول "صياد" التركيز عليه في بحوثه). واستنادا الى خالد شهبار (185:2016)، فان ع. المالكي يميز بين الهجرة migration والحراك mobility وبين الهجرة النازحة emigration والهجرة الوافدة immigration.

-الهوية الاجتماعية للمهاجر:

إنها مجمل مساره منذ لحظة انطلاقته من بلده الاصلي الى لحظة وصوله واقامته ببلد الاستقبال، ومن الصعب على المهاجر اضمار احدى تلك اللحظتين الممتدتين على طول تاريخ حياته ومساره (الغياب المزدوج).

-التمثلات:

التصورات التي يحملها الفرد على الأخرين، أو عن ما ينبغي أن يكونوا عليه وتتشكل التمثلات الاجتماعية من خلال التنشئة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية. فليس هناك وجود بشري بدون تمثلات ملازمة لهذا الوجود. فالتمثلات، تقود أعمال وممارسات البشر، وتوجهها وترى جودلي (Jodelet) ان التمثلات: " هي شكل من أشكال المعرفة، منتجة اجتماعا ومقتسمة ، تستهدف غاية عملية وتسعى الى بناء واقع مشترك لمجموعة اجتماعية" (مولاي، 2006).

-الاجراءات المنهجية للبحث

- المنهج: المنهج النوعي

-ادوات البحث: حيث المقابلة المعمقة والملاحظة المباشرة تعتبران اداتا البحث. فالمقابلة النوعية المعمقة والتي تتبع مسارات الحياة في المهجر وبعد العودة (life stories). انطلقت من اسئلة تتعلق بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والخصائص الاجتماعية والديموغرافية للعائدين قبل الذهاب من الجزائر وخلال الهجرة وعند عودتهم.

–العينة وخصائصها:

انها عينة قصدية أو عمدية وتتشكل من 10 عائدين من الشيوخ، التقينا بهم في الجزائر ولنا علاقات اجتماعية وصلة قرابة بهم ونملك كثير من البيانات والمعلومات عن مسارات حياتهم سواء من خلال لقاءهم أو من خلال أسرهم أو شبكتهم للعلاقات الاجتماعية. حيث أقاموا نهائيا في الجزائر ابتداءا من1979، و 02 من المهاجرين المتقاعدين غير المستقرين بفرنسا ولا بالجزائر يتوافدون على فرنسا لتحصيل منحة التقاعد فقط، الذين لم يتخذوا قرارهم النهائي بالعودة لكن بالنسبة لهم هو مشروع مستقبلي، التقينا بهم في أحد المراقد العمالية في منطقة ايفريEvry –فرنسا- في 2014. ان هؤلاء المستجوبين مهاجرين من الجيل الاول، والذين التحقوا بفرنسا بعد الاستقلال، متقاعدين رجال. اقاموا بصفة دائمة في فرنسا ما بين 15-30سنة)، منهم من اقام في منطقة الألزاس (Alsace)، ينحدرون من نفس منطقة (سكيكدة)، واخرون متقاعدين مقيمين بين فرنسا والجزائر يسكنون في مراقد عمالية متواجدة في ايفري ضواحي مدينة باريس (ينحدرون من منطقة سطيف). العودة بالنسبة لهم بداية مشروع جديد (بناء مسكن عائلي، تزويج الأبناء، الموت بين الأهل...)، وتعلقهم الشديد بوطنهم وخاصة نمط حياتهم في قراهم ومداشرهم (حنين طفولي ضائع).

1- في سوسيولوجية الهجرة العائدة والعائد:

تناول ظاهرة الهجرة العائدة (الدولية)، يختلف باختلاف البحوث واستعمالاتها، فمنها من يركز على واقع المهاجر في بلد الاستقبال واخرى على اسباب العودة، في حين اهتمت اخرى بالفرد العائد. بمعنى جوهر الاشكال والتساؤل هو: هل ينبغي التركيز على الواقع في كليته أم الانطلاق من السلوكيات الفردية، والمعنى الذي يضفيه الفاعلون عليها؟. ان ظاهرة الهجرة العائدة هو الفصل غير المكتوب من تاريخ الهجرة (" Return migration is the great unwritten chapter in the history of migration " (King, 2000, p. 7. او هي "الظاهرة التي يساء تقديرها مقارنة بأهميتها الحقيقية". (Durand,2004 ;Rallu,2007). ويعتبر ارناست جورج رافنشتيان (. Ravenstein1885)، الذي طور أحد مسلماته في قوانين الهجرة: وهي أن كل حركة هجرة تستلزم وجود تيار عكسي، وهو ما يعتبر بالنسبة للبعض أول مرجع للهجرة العائدة، إن هيمنة مقاربة التحليل الريفي/ الحضري الموغلة في علم

اجتماع الحضري حالت دون تطور الاهتمام بالموضوع، حيث حجبت معالجة ظاهرة العودة ثم نقص الاحصائيات (Michael da Cruz. 2014 :74-75).

غير أن الاهتمام بظاهرة الهجرة العائدة ازداد بعد الحرب العالمية الثانية بسبب عودة المجندين والمحاربين الى أوطانهم، وكان لزاما تكثيف الاهتمام بالظاهرة خاصة بعد الأزمة البترولية 73-78 وما خلفته من ركود اقتصادي وتراجع النمو في الدول الصناعية. مما جعل كثير من "العمال الضيوف" يفقدون عملهم وأصبح "العامل الضيف" الأجنبي ينافس الأوروبي في العمل مما حذا بالكثير منهم الى المغادرة والعودة الى أوطانهم منهم العمال الجزائريين تحت اغراء حزمة تشجيعية حكومية آنذاك.

1-1-مقاربة تحليل ظاهرة الهجرة البديلة:

بغية فهم سوسيولوجيا الهجرة الجزائرية في إطار البراديغم الجديد، نستعين بباحثين جزائريين متمرسين في هذا الحقل وهما "مولود معمري" و"عبد المالك صياد" في معالجة ظاهرة الهجرة والمهاجر، حيث تعتمد هذه المقاربة على تفكيك واقع المهاجر وصعوبة الاندماج والتهميش الاجتماعي والعنصرية في بلد المهجر (الهوية الاجتماعية للمهاجر)، اي صعوبة الاندماج مما يدفعه الى العودة. لقد خصص مولود معمري اهتمامه حول المهاجرين الجزائريين، حيث قسم المهاجرين الأوائل في 60 و70القرن الماضي الى مهاجرين موسميين يشتغلون في فرنسا ثم يعودون، ومهاجرين مستقرين في بلد الغربة، ينقطع البعض منهم عن التفكير في العودة ثم النسيان وبعضهم يتهون وينحرفون والنتيجة تكون التوقف عن التفكير في العودة. يعودون في سن متقدمة فلا يكاد يعرفهم أحد (خميسي ، 2014. 132-134).

ومع ع. صياد، تبرز مقاربة جديدة في سوسيولوجيا الهجرة من خلال التركيز على المهاجر في كليته من خلال ابتكار مفهوم الهوية الاجتماعية للمهاجر، ومفهوم "المسار" من أجل دراسة الحركة الاجتماعية للأجيال المختلفة من المهاجرين في ذهابهم و ايابهم، (بلعباس 2013.: 25-38). هذا الطرح الجديد مَكنه من إحداث تغيير في النظرة السوسيولوجية لظاهرة الهجرة لابتكار مفهوم الهوية الاجتماعية. وتأصيلا لفكرة صياد، يذكر ثائر ديب: "ان المهاجر المغترب يعيش لحظتين متداخلتين متزامنتين فهو فرد يرتبط بجذوره وثقافته ويصارع للحفاظ على ماضيه. " (ديب 2018: 77-78).

1-2--مشاريع العودة المُنَفذْ منها والمؤجل: (طموحات وأهداف مختلفة للعائدين)

تختلف اسباب ودوافع العودة من مغترب الى اخر، فمن التقاعد وفقدان العمل (العجز)، الى نداءات الوطن وحالة الاستقرار والتنمية التي يشهدها والتي تصبح عامل جذب، الى الخوف من تفكك الروابط الاجتماعية، الى ظروف العيش الصعبة في البلدان المهجر ونسق الحياة المتسارع والمتبدل، الى أزمات الهوية والتنشئة الاجتماعية للأطفال والتغيير الأسري ، الى الوازع الديني والخوف من التفسخ

الثقافي للأبناء، الى الضياع والموت من دون حضور الأهل والأقارب (جنازة الميت المجهول ومراسيم غير تامة الطقوسية). والاكثر غربة هو معاناة الغياب المزدوج بتعبير ع. صياد. حيث يرى: "ان المهاجر دائم التفكير في العودة الى بلده الأصلي وخصوصا من المنتمين للجيل الأول من المهاجرين (المنحدرين من المغرب العربي)، ويظل يصارع مع ثقافة بلد الاقامة لحين يحقق عودته". و كشفت كثير من الدراسات أن فكرة العودة والعيش في البلد الأصلي في افريقيا حاضرة دائما بين المهاجرين، ولكن قرار العودة يحتاج الى تحضير جيد للتقليل المخاطر مثل دراسة: -Hernandez ;Flahaux,2013 ;Sinatti,2011 Carretero,2017. ان هذه الدراسات وضحت أنه ليس المهاجرين المتقاعدين هم فقط من يشكل العائدون ولكن ايضا مهاجرين يريدون الاستثمار في موطنهم الأصلي (L. Akesson et M. Eriksson, Baaz. 2015)، فالإندماج بعد العودة ليس بديهي بالنسبة لهؤلاء للمهاجرين الذين كانوا في وضعيات غير قانونية في أوروبا والذين استفادوا من برنامج مساعدة للعودة "الارادية" (Wanner. 2008).

ان مسالة عودة المهاجرين، سواء متقاعدين أو شباب لها فوائد متنامية لدى متخذي القرار السياسيين، سواء في البلدان الأوروبية الوافدة اليها المهاجرين أو البلدان الافريقية، فاذا كان الأوروبيون يضاعفون من الاجراءات لتشجيع المهاجرين المقيمين في أراضيهم على العودة (مثلما سعت فرنسا مع les Romains في سنوات 2000)، فان الافارقة يستهدفون بالتحديد عودة الاشخاص الذين تحصلوا على موارد انسانية ومالية في الخارج تظهر كإمكانيات للتنمية، فمسالة عودة المهاجرين لا ترجع فقط الى تحقيق وانجاز العودة في حد ذاتها ولكن في طموحات العودة والاندماج بعد العودة. انها تطرح في كل لحظة من مسارات حياة المهاجرين منذ بداية هجرتهم (وربما قبلها) حتى ذهاب جديد متحمل للخارج بعد العودة (flahaux-marie-laurence ,2017).

1-3- تصنيفات للعائدين وأنواع العودة

ان عودة الأفراد والعائلات من الهجرة التي نقصدها تتنوع وتتعدد، فهناك من عاد الى موطنه بعد محاولة هجرة للعمل والاستقرار والبقاء، غير ان الحظ لم يحالفه، وتراكمت ظروف كثيرة أجبرته على الرجوع والعودة ارادياً، أو بفعل الطرد بسبب الاقامة غير الشرعية أو الجنح، وتمثلها في أغلب الأحيان هجرة الشباب (الحراق) بداية من سنوات 2000. حيث ازدادت مشكلة الهجرة عالميا مع تأزم مشكلات اللاجئين، فاتخذت عديد من الدول اجراءات بترحيل عدد منهم.. رصدنا عينة معتبرة من العائدين المطرودين (لم تشملهم الدراسة) ونتيجة صدمة الطرد (الرجوع الإجباري) من مختلف البلدان الاوروبية، تعرضوا لحالة من الاكتئاب، مما صعب عليهم الاندماج. تدل الشواهد على وجود عشرات من هؤلاء المُرَحَلِينْ، الا أنهم يحسون بخيبة الأمل ويتخوفون من وسمة العار الاجتماعية (stigma) التي قد تلحقهم لأنهم بحسب رفاقهم فشلوا في الاندماج أو الظفر بعمل أو الزواج بأجنبية

وتكوين حياة. تراهم يتحدثون بحسرة والم ويأملون بالهجرة من جديد الى اوروبا رغم تقدمهم في السن. انها بالنسبة لهم تجربة اولى سيكررونها لا محالة (وهذه تسمى عودة نتيجة لفشل مشروع الهجرة return of failure. وهذا مجال للبحث اخر يطرح تساؤل وهو لماذا حلم الهجرة تحول الى قيمة اجتماعية؟.

ثم نجد المغتربون العائدون من الجيل الاول 1962. 1963. 1964... سماهم مولود فرعون المستقرون (les sédentaires) مقارنة بهؤلاء الذين كانوا يذهبون ويغدون بين الجزائر وفرنسا غير المستقرين. هاجروا بداية من 1962، للعمل في فرنسا هروبا من البؤس والفقر، وكل له طريقته في السفر يرويها كثيرون منهم أو كثير عنهم (تختلط فيه المآسي بالطرفة ولحظات الطيش، مثلما حدث لواحد من أفراد عينة البحث حيث كانت انطلاقته من ميناء عنابة على متن باخرة لشحن القمح سنة 1968، حيث تسلل داخلها متنكرا بزي أحد عمال الشحن دون أوراق ودون نقود واقام بها غير ان ظروف ابناءه في الجزائر اجبرته على الرجوع في نهاية الثمانينات)، منهم من عاد نهائيا واستفاد من اجراءات تغيير الاقامة (CCR) وهي اجراءات يستفيد بموجبها المهاجر العائد من كثير من المزايا الجمركية والاجتماعية من طرف القنصليات الجزائرية. دراستنا تركز على هؤلاء العائدين والذين يمكن تقسيمهم الى صنفين من المهاجرين الذين تشملهم هذه الدراسة (ويسمى هذا الشكل من العودة return of retirement.

الصنف الاول، وهم هؤلاء المتقاعدون، غير المقيمين طوال السنة في فرنسا وغير المقيمين بصفة دائمة أيضا في الجزائر. يشكلون ما كان يعرف بالجيل الأول من المهاجرين بعد الاستقلال. لكل واحد منهم قصته في الهجرة الى فرنسا والمعاناة. التقينا بهم في 2014، وهم عينة ينحدرون من سطيف وسكيكدة. يعانون من رتابة الحياة والروتين اليومي وصراعا نفسيا لتحديد قرار العودة، يعيشون في مراقد Sonacotra (Foyers) المخصصة للعمال في مدينة ايفري 91 جنوب باريس. يقضون أيام الاسبوع متنقلين بين محلات والمساحات التجارية والمسجد بمدينة ايفري Evry و يوم الأحد يلتئمون حول موائد الطعام الجماعية، التي يتم اعدادها في المرقد ليتجاذبوا اطراف الحديث لنسيان حالات الضياع (الغياب)، وتذكر زمن الطفولة والشباب المحترق، أقاموا في أحد الغرف بالفندق مسجدا صغيرا لإقامة الصلاة، وكثير منهم يودون التخلص من أوراق بلد المهجر غير أنهم مجبرين على التردد على فرنسا. البعض منهم ترك عائلته في الجزائر، فيعبر عن حالة من التمزق ويأمل ان ينهي هذه الوضعية بالعودة نهائيا. كثير منهم يحمل مشروع العودة، غير أن محاورتهم بشان العودة تختلط لديهم بكثير من العقبات والمشكلات الاجتماعية والنفسية التي تصعب من امكانية الاندماج من جديد في بلدهم الأصلي. هم يملكون هوية عمالية في فرنسا وألفوا العيش في هذه البيئة مع بعضهم البعض الى جانب زملائهم من الفرنسيين والافارقة رفاق (الهوية المهنية).

انهم يرون أن العودة هي عملية اجتثاث ستحدث لهم مرة اخرى (بعدما تجرعوا مرارتها وهم يغادرون تحت جنح الظلام لئلا تحترق قلوب ابناءهم وأهاليهم من فراقهم)بعدما جاءوا مهاجرين من الجزائر في بداية الستينات هروبا من الفقر وبحث عن الرزق تركوا أسرهم وعائلاتهم وأحبابهم بعيدا، اخبارهم لا تصلهم الا نادرا عبر بريد شحيح لا ينقل كل أخبارهم وأحوالهم وان وصلهم بريد لهم لا يقرؤونه لأنهم لا يحسنون فك الحروف فيستعينون بمن حالفه الحظ بالقراءة فتذهب خصوصيتهم وخصوصية أهاليهم (تصبح مباحة للآخرين وهو ما يزيد من الضياع والحُرقة).

فئة من هؤلاء العمال المغتربين المتقاعدين لم يستطيعوا مواصلة حالة التشتت التي يعيشونها بين وطنين وعالمين وكثير منهم ترك زوجته وأبناء وبنات قصر في الجزائر، فقرروا العودة الى الجزائر منذ سنوات 1979 (العينة)، فمنهم من عاد في نهاية السبعينيات ومنهم من عاد في سنوات الثمانينات ومنهم من عاد في التسعينات. ان قرار العودة بالنسبة لهم لم يتخذ بطريقة سهلة فكثير من الرفاق، أرباب عملهم وأصدقاءهم الفرنسيين والأجانب (برتغاليون وأفارقة خاصة) اعترضوا رجوعهم. ان قرار العودة يضع صاحبه في صراع نفسي انها عملية معقدة بالنسبة للبعض، هي عملية اقتلاع مرة اخرى كما قلنا تشابه بداية الهجرة من الموطن الأصلي. فعودة المهاجرين هي عملية رجوع الى البلد الأصلي بعد مدة زمنية من الاقامة في الخارج وذلك راجع الى مساندة العائلة أو الأصدقاء أو تحسن الظروف المعيشية وتوفر الامن والاستقرار وكذلك ارتفاع مستويات التنمية في البلد الأصلي وغيرها. (عايش ومرابط. 2016. 111). وبناءا على دراسات سابقة فان حركة المهاجرين الجزائريين من والى الجزائر عرفت ذروتها في الفترة 62-1972 حينما كان السفر يتطلب بطاقة تعريف وطلب فقط. في سنة 1999 يذكر محمد خندريش، ان عدد العائدين في المتوسط قبل أعوام 1980 كان 15000، انتقل بعد ذلك الى 10000عائد في 1980 مقابل 8000 في 1986 الى بعض المئات بدءا من 1989. وبالرغم من انه في خلال اعوام 1990 وحسب احصائيات 1987و1988 سجلنا متوسط سنوي قدر 2600 شخص عائد (Saib. 2007). وفي دراسة أجريت من طرف مخبر الدراسات والبحث حول المغرب والبحر المتوسط التابع للمركز البحث في الاقتصاد التطبيقي والتنمية CREAD الجزائر 1992، بينت أن إدراك مشروع العودة مسألة غامضة حسب عملية لسبر الآراء أجريت سنة 1990 مع جزائريين مقيمين في الخارج... وسجل وجود استراتيجيات متعددة للمستجوبين حول مسألة العودة فهم بين العودة واللاعودة. من مجموع المستجوبين 20% كانت لهم مبادرات للعودة و 4% يعتبرون العودة مستحيلة وبين هذين الاتجاهين متغيرات عديدة تظهر علاقات المهاجرين الجزائريين المستجوبين بوطنهم ((saib, 2007 :12هؤلاء العائدون ممن ينضوون تحت شكل عودة المحافظون return of conservatism أي هؤلاء المهاجرون الذين حافظوا على طبيعتهم كفلاحين ولم تغير فيهم بيئة الهجرة شيء في مقابل الشكل الأخر وهم

العائدون المجددون return of innovation هؤلاء العائدون الذين اكتسبوا تجربة ومهارة ويحملون قيم جديدة، كفاءات، طموحات (M. da. Cruz. 2014 :95).

2- دراسة اسباب ودوافع وتأثيرات الهجرة العائدة

2-1- تحليل وتفسير البيانات المجمعة من المقابلات مع المتقاعدين العائدين

يلاحظ ان المقابلات جرت في 2014 والباقي جرت في الجزائر 2019، مع الذين تربطنا معهم علاقات اجتماعية و قرابة واخرين حصلنا على مسارات حياتهم من أسرهم، تتكون من رجال أعمارهم بي 61 و85 سنة. فالأقل سنا منهم لم يشتغل كثيرا على العكس من باقي افراد العينة الذين تنقلوا منذ وصولهم الى فرنسا ابتداء من 1962 الى كثير من المدن الفرنسية للاشتغال وأخيرا استقر بهم المقام في نواحي العاصمة الفرنسية.

تؤكد الشواهد المجمعة ان بعض هؤلاء المتقاعدين دخلوا المدرسة الابتدائية في الجزائر، غير أنهم لم يواصلوا التعليم، وعلى ذلك فالمستوى التعليمي لم يمكنهم من التأقلم مع البيئة الجديدة عند قدومهم الى فرنسا وانعكس ذلك سلبا على علاقاتهم الاجتماعية الجديدة واتصالهم مع عائلاتهم في الجزائر (الاغتراب). وبالنسبة للمهن التي يشتغلون بها فتصنف في الأعمال اليدوية العضلية وخاصة البناء والاشغال العمومية وهو القطاع الأكثر استيعابا لليد العاملة المهاجرة في سنوات الستينات والسبعينات في فرنسا.

أغلبية المبحوثين عندما غادروا الوطن كانوا متزوجين تركوا عائلاتهم في الجزائر. الا حالة واحدة تزوج بعد عودته الى الجزائر سنة 1979 و يلاحظ ان العائدين لم يستثمروا أموالهم خلال إقامتهم بفرنسا ولم يشتروا عقارات ولا مباني بل كانوا يقطنون في المنازل الخاصة بالعمال (مراقد). أما الذين استفادوا من القانون الفرنسي للَمْ الشمل العائلي (Family reunification) أي جلبوا أسرهم التي كانت في الجزائر للعيش معهم استنادا للقانون الفرنسي، واقاموا في سكنات HLM في الضواحي. و في الجزائر، البعض منهم، تحصل زمن التسعينات على قطع أرضية مكنتهم من بناء مساكن فردية (فيلات فخمة). فالعمل في الغربة وفر للكثير منهم رغد العيش في الموطن الأصلي ، حيث يلجأ اليهم الكثيرون للاستدانة أو طلب المساعدة في الأوقات العسيرة، والصورة ارتمست لدى أهل البلد ان المستوى المعيشي للمغترب في الجزائر أحسن من غيره. لذا تظهر المخاطرة بالهجرة كتقليد اجتماعي، تنامى منذ 2000 يدفع الشباب الى اتباع مسارات هؤلاء العائدين.

وبغية رصد مسارات المهاجرين العائدين الذين يشكلون عينة البحث باعتبار كل واحد منهم حالة بحد ذاتها قمنا بأنشاء الجدول المركب (01) اسفله، والذي يحمل بيانات أساسية تشكلت من أسئلة المقابلة المعمقة وتتبع مسار كل متقاعد عائد (عددهم 10) و (02) متقاعدين بين ذهاب واياب

بين فرنسا والجزائر ويحملون مشروع العودة نهائيا وان كانت في نظرهم الظروف لم تتجمع بعد لتنفيذ قرار العودة. أنه مع بداية الثمانينيات وبداية الأزمة الاقتصادية ثم سنوات العشرية السوداء (1991-2001) تراجعت أعداد العائدين بل على النقيض بدأت موجات من الهجرة من جديد نحو أوروبا وبالتحديد نحو فرنسا وتفاقمت بعد 2000 بسبب غياب مشروع مجتمع وسياسات تكاملية في معالجة ظاهرة الهجرة السرية.

2-2-العائد والتأويلات الاجتماعية (المحيط العائلي والاجتماعي)

المهاجر العائد (الهارب) الى حنين وطنه يكتشف عالما أخر به مخاطر، مليء بالتأويلات الاجتماعية والمثبطات النفسية والتساؤلات التي تحرج العائد من الهجرة من خلال المقارنة بين العالمين أو المَوْطنيَنْ. ان عائلته هي الوحيدة التي تدرك حقيقة المعاناة والسر وراء قرار العودة (لوعة فراق الأهل والأبناء وما ينجم عنها من التشتت العاطفي الى حد التمزق)، فلا تكفي السياسات والإغراءات والحوافز المادية بقدر ما يدفع المهاجر للعودة الى موطنه الاصلي هو قناعاته واشباع حاجاته والرضا عن نفسه، ولَمْ شمل العائلة، والتخلص من لوعة الفراق وحرقة الغربة والبعد عن موطن الطفولة (الغياب المزدوج). كثير ما وجد العائدون صعوبة في اتخاذ القرار والحسم لان المحيطين بهم، الأقارب وفي بعض الأحيان الادارات على مستوى بلد المهجر، والبلد الأصلي يحاولون دون تنفيذ القرار. ثم تظهر لهم مخاطر بدء حياة جديدة.

في موطنه الأصلي يجد العائد في البداية القيمة الاجتماعية اعتبارا من أنه كان مغتربا ومختلفا ويتعامل معه الناس بحذر واحتراما وله مكانة بين الناس، انهم ينظرون الى ذلك العائد الذي ارتحل الى بلد أجنبي للعمل والرزق انه "المُتَغَربْ" في لغة عامة الناس، والذي كابد وتعب من معاناة السفر والغربة، بنظرة امتنان وافتخار لأنه تخلص من الفقر والبؤس الذي عاناه في السنوات الاولى للاستقلال وهم يتصورون، انه أكل ما يشتهي ولبس الملابس الاوروبية وركب المركبات الحديثة. لقد شاهدنا واستمعنا الى عينة منهم في باريس في مراقد سونكترا، وفي الجزائر الى احاديث بعضهم وكيف كان يجتمع حولهم كثير من الأفراد في الجلسات العائلية وكذا في المقاهي، يتبادلون معهم أطراف الحديث وكل يصبو الى غاية ما، أن العائد من الغربة كان ينظر الى الجالسين أمامه، يريد أن يخبرهم عن معاناته في الغربة، العمل الشاق وسوء التغذية ، وانه لم يلبس الملابس الأوروبية ولم يأكل أشهى الأكلات ولم يركب مركبات حديثة أقصى ما تحصل عليه النوم في فنادق وضيعة، بعدما كان يسكن في الأكواخ القصديرية، والبيوت الهشة والقصديرية في ضواحي باريس والالزاس، انه يريد أن يخبر محدثيه عن كل القسوة في العمل والمناخ والأمراض والعنصرية في مترو الانفاق التي تعرض لها وسنوات المعاناة، ثم يخبرهم عن أهدافه وطموحاته المستقبلية في بلده. بعض منهم غايته من الاجتماع به هو مشروع هجرة

جديدة (باعتباره نموذج ناجح). مع مرور الوقت سيهجرونه لأنه يصبح في نظرهم تطبع بخصوصيات المحلي، لا يدفع أثمان جلستهم في المقاهي ولا يقرضهم المال أو لا يسهل لأحدهم الحصول على أوراق الاقامة... في وقت يبدأ هو بالتشبع من الشوق والحنين الى الموطن الاصلي، ويبدأ ساعيا في ترميم الماضي وما أُفْسدَ أثناء غيابه. يرونه ثري عاد محملا بالثروة وهو لا يملك الا منحة تقاعده وقد يكون لا يملك حتى سكنا في فرنسا. الناس ترى المهاجر المتقاعد كشيخ انتهت أيامه بعدما أفنى عمره في فرنسا يعمل عند "القاوري"... أو "الرومي"... أه مسكين هذا واش اربح من فرنسا... أخرون يقولون واش رجع يدير في البلاد...

أما بالنسبة للمتقاعدين الذين لم يستقر لهم حال ومازالوا يرتحلون الى فرنسا ويقيمون في المراقد للحصول على منحهم فكثير من يعتبرونه هاربا من مسؤولية عائلته ووطنه ولا يحب وطنه... وله كثير من عبارات الذم والقدح... مثل راهو عايش "زوفري"... وهي تحوير للكلمة الفرنسية "Ouvrier"... انها وضعيات وواقع يعايشه العائدون يدفع البعض للتفكير من جديد في هجرة اخرى، وتلك مخاطر الاندماج.

2-3-تاثيرات العائد وفعل الهجرة العائدة:

تعتبر بالنسبة للمهاجر العائد تغير وضعية اجتماعية (مكانة اجتماعية)، من عامل فقير الى صاحب عوائد مادية وممتلكات، من دور عامل الى دور منتج مستثمر او متكفل. اما بالنسبة للبلد الأصلي، فقد تساهم محليا في ظهور التنمية الاقتصادية في مناطق اقامة العائدين (القرى والمداشر)، وهو ما لاحظناه في ولاية سكيكدة، ومداخيل مالية جديدة، تضامن وتكافل اجتماعي خاصة في المناسبات والاحتفالات الطقوسية والدينية، يلاحظ أن أموال العائدين لا تستخدم في غالب الاحيان في الاستثمار المباشر، بل في الاستهلاك غير المنتج (شراء المنازل، سيارات..)، وقلة الادخار البنكي للعائدين. اما بالنسبة للأسر، فعودة المهاجر مكنت من جمع شمل العائلات والأبناء كما عايشناه مع بعض عينة البحث. ان العائد يحرض كثيرا على حلم الهجرة لدى الشباب، انه نموذج يحتذي به خاصة اذا أحسن استثمار عودته بإنشاء مشاريع وقدرة شرائية استهلاكية حيث يوصف بانه يملك الدوفيس (العملة الصعبة). اما بالنسبة للدولة فهو هدف استراتيجي.

الخلاصة

-الهجرة العائدة تبقى أحد الظواهر الأقل اهتماما من طرف وسائل الاعلام، فلم نر تحقيقات عن هؤلاء العائدين الى أوطانهم من الغربة ونجاحاتهم في الاستقرار في وطنهم.

-الهجرة العائدة بالنسبة للشيوخ حتمية وبالنسبة للشباب قد ترتبط بالفشل وعدم القدرة على الاندماج والانحراف.

- لم يعد مصطلح المهاجر والمغترب يحمل نفس الدلالات والتمثلات السابقة التي كانت ترتبط به في ستينات وثمانينات القرن الماضي من التبجيل والاحترام والإعجاب الاجتماعي في بلد المهجر او في موطنه.
-بعض من زوجات العائدين (عينة الدراسة)، الأجنبيات لم يألفن العيش في الموطن الأصلي للعائد فأثرن العودة الى فرنسا (يسجل البحث هنا حالة جزائري من سكيكدة متزوج من زوجة ثانية برتغالية لم تطل اقامتها في الجزائر الا قليلا ثم عادت). اما زوجاتهن الجزائريات اللائي عشن سنوات اغتراب ازواجهن عنهن، فهذا ايضا مجال بحثي هام ينتظر.
-تسجل الدراسة بيروقراطية في تسيير عودة المهاجر، وأفق غامض في البلد الأصلي مخاطر هجرة جديدة).
-نقص أدوات التحليل المتعلقة بأثارها على التنمية والعوامل المؤثرة في أساليب اعادة الاندماج للمهاجرين العائدين (نقص الاحصائيات).
-الحاجة الى أليات ملائمة تساعد على اعادة الاندماج الاجتماعي والمهني للمهاجرين العائدين لبلدانهم الأصلية وخاصة الشباب منهم والحاملين لمشاريع استثمارية ومهارات انسانية وامكانيات مالية.
-تطوير مرافق العيش والرفاهية للعائدين من الشيوخ والعجزة الذين يجدون أنفسهم مرة أخرى منعزلين على مواطني بلدهم.

التوصيات

- إلاء الإهتمام بالمتقاعدين العائدين وتوفير لهم جو من الراحة على غرار ما هو موجود في بلدان المهجر.
- محاولة تسهيل الحصول على مسكن أو شراء قطعة أرض عوامل تدفع وتشجع على العودة (على غرار ما فعلته الحكومة الجزائرية منذ 2016 بالسماح للجالية الجزائرية بالخارج من الحصول على سكن بصيغة "عدل"AADL).

جدول مركب رقم 01 يظهر بيانات ديموغرافية لعينة الدراسة

	السن	المهنة قبل التقاعد	عدد الشركات الفرنسية التي اشتغلت لديها	مكان الاقامة في فرنسا	الجهة التي يتحدر منها في الجزائر	سنة مغادرة الجزائر	سنة العودة الى الجزائر	اهداف العودة الى الجزائر	
1	79	عامل تصليح		ميلوز	سكيكدة	1967	1979		تقاعد و الراحة
2	67	بناء عمارات		ميلوز	سكيكدة	1962	1978		تقاعد لتحضير الرحيل
3	76	سائق زافعة	Bouygues	ميلوز	سكيكدة	1964	1981	كل العائلة	تقاعد
4	68	عامل اسمنت	شركة صناعية	ميلوز	سكيكدة	1967	1984		تقاعد
5	79	عامل في حديد البناء	شركة اشغال	ميلوز	سكيكدة	1963	1977	كل العائلة	تقاعد
6	61	دهان	خاص	ميلوز	سكيكدة	1965	1974		تقاعد
7 م	63	بناء	شركة اشغال	ميلوز	سكيكدة	1964	1978		
8	79	اشغال عمومية	شركة	باريس	سكيكدة	1963	1985	كل العائلة	تقاعد
9	81	عامل مخازن	تجارة	باريس	سطيف	/	1962		تقاعد
10	74	بناء تابليط	اشغال	ميلوز	سكيكدة	1963	1994		بناء مسكن عائلي
11	85	عامل في مطاعم	موسسة	ديس	سكيكدة	1964	1997		اعالة الابناء
12	82	سمكري	موسسة	باريس	سطيف	/	1962		تقاعد

المصدر : بوشيشة، 2019

المراجع

عايش محمد الهادي ومرابط اليامنة. 2016. الهجرة العائدة في الجزائر دراسة ميدانية لعينة من المهاجرين العائدين بولاية قسنطينة. مجلة تاريخ العلوم جامعة زيان عاشور الجلفة. المجلد 2. العدد 3. ص 109-118

بلعباس عبد الله. (2013). ظاهرة الهجرة عند عبد المالك صياد: من السياق التاريخي الى النموذج السوسيولوجي. مجلة انسانيات. المجلد 17. عدد62. مركز البحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ، 38-25. ثائر ديب. (2019). زمن المهاجر. مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، المجلد 6 العدد24. 73-79.

خميسي عبد الحميد. (2014). مصادر التاريخ الاجتماعي وتاريخ الهجرة في الجزائر من القرن 19 الى القرن20. سوسيولوجيا الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر. قسنطينة: جامعة منتوري قسنطينة. 132-134

شهبار خالد. (2019). سوسيولوجيا الهجرة والتحضر امام اختبار البراديقم البنائي. مجلة عمران للعلوم الاجتماعية ، المجلد5 العدد18. 183-191.

فضيل دليو. (2014). المهاجرون في اسبانيا اعتبارات نظرية ونماذج دراسية.. أعمال الملتقى العلمي الاول حول سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر: جامعة منتوري - قسنطينة.

مراد الحاج مولاي. (2006). العمال الصناعيون في الجزائر ممارسات وتمثلات. مجلة انسانيات. عدد34. مركز البحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ، 61-73.

flahaux-marie-laurence, E. t. (2017). les migration de retour en afrique. espace populations société /http://journals. openeditions. org.

L'ONU. (2018). MIGRATION. comité des refugies et migration.

Michael, Da. Cruz. (2014). back to tenochtitlan migration de retour et nouvelles maquiladoras de la communication: le cas des jeunes migrants employés dans les centres d'appel bilingues de la ville de mexico. Revue sociologie , 25-35.

saib, m. m. (2007). migration de retour au maghreb ; une nouvelle stratégie pour l'algérie. mirem rapport d'analyse. https://researchgate. net/publication

warnner, P. (2008). l'apport des migrants au développement une perspective économique. Annuaire suisse de politique et développement n°27.